الانهيار الاجتماعى

مقياس جديد

لا يعيش المجتمع على حال واحدة لا تتغير . فإن ظروفا كثيرة تطرأ عليه من رخاء أو كساد، وحرب أو سلام، وطمأنينة أو قلق، ونظام أو فوضى . وجميع هذه الظروف تؤثر فيه بالرقى أو التخلف وبالتماسك أو الانهيار . فكيف نقيس المجتمع، وكيف نستطيع أن نقول إنه فى حال حسنة أو حال سيئة ؟

إننا لكى نصل إلى هذا القياس يجب أن نعرف المجتمع الأمثل ما هو وكيف يتألف . ثم نقيس الانحرافات . ويجب أن نعين الانحرافات التى يمكن قياسها بالأرقام حتى لا نتورط فى الآراء والميول ، وحتى لا نستسلم لخداع الوهم . فليس أحد يشك مثلا فى أن الجنايات فى أمة ما يمكن قياسها بالأرقام . وأن المجتمع الأمثل هو الذى تنقص الجنايات فيه عن غيره . وكذلك الشأن فى الصحة وغير ذلك . ولكن ما هى وحدة المجتمع ؟ هل هى الفرد أم العائلة ؟ أى هل يجب أن يكون قياسنا للانحرافات قياسا قائما على عدد الأفراد المنحرفين ، أم على عدد الأسر التى ظهر فيها هؤلاء المنحرفون ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول إن فى الولايات المتحدة هيئات مختلفة تبحث هذا الموضوع، وهى ترى أن العائلة هى وحدة المجتمع وهى التى يجب أن تكون أساس الاحصاءات التى تبين لنا حاله من تماسك أو انهيار . فالجناية التى تقع فى أمة ما ليست فى الحقيقة جناية فرد وإنما هى مرض له جراثيمه ، فيجب أن نكافح هذه الجراثيم فى بيئتها الأصلية، وليس فى الفرد المريض بها وحده . فاذا تفشت حمى التيفوئيد فاننا قبل كل شىء نعزل المريض حتى نمنع عدواه عن سائر من فى المنزل أو ننقله الى المستشفى . ولكن هذا الاجراء لا يكفى لأننا نحتاج لمكافحة هذه الحمى إلى أن نبحث عن الجراثيم فى الماء أو اللبن أو الذباب أو المجارى . واذا لم نقصد الى جميع هذه الأشياء ونطهرها فان معالجتنا للشخص المريض نفسه لا تجدى كثيرا .

وهذا هو الشأن فى الانحرافات الشخصية . فانها جميعها ثمرة البيئة العائلية . وعلى هذا الأساس يجب أن نجعل العائلة أصلا لجميع الاحصاءات التى تدل على الصحة الاجتماعية . وترى هذه الهيئة أن قياس العائلات يجب أن ينظر فيه الى هذه الأمراض السبعة :

(١) جرائم الصبيان (٢) جرائم الكبار (٣) المرض العقلى (٤) الطلاق (٥) العجز عن العمل الكاسب (٦) الاهمال أى ترك العضو العائل أعضاء الأسرة من زوجة أو أولاد وامتناعه من أن يعولهم (٧) النقص العقلى .

ويرى القارئ فى هذه الأمراض أنه لا يمكن أن يسأل عن واحد منها فرد لأنها جميعها جرائم مشتركة بين اثنين أو أكثر أو هى نقص وراثى يتكون فى العائلة . فيجب أن ترد نتائج الاحصاءات الى العائلة . بجرائم الصبيان مثلا هى نتيجة لإهمال الآباء أو للتيتم أو للقسوة . وجرائم الكبار قد تكون النمو الطبيعى لانحرافات صغيرة مدة الطفولة . والمرض العقلى هو ثمرة العائلة ، لأنه إما موروث بالدم وإما مكتسب من الأخطاء فى المعيشة البيتية . والطلاق هو آخر مرحلة لشقاق قد مضت عليه سنوات بين الزوجين . والعجز عن العمل الكاسب هو ثمرة الاهمال فى التربية أو العادات السيئة للمعيشة . وتقصير العضو العائل للأسرة فى اعالة سائر الأعضاء يدل على أسوأ العواطف بينه وبينهم . والنقص العقلى ، مثل القلق النفسى أو البلادة الموروثة أو غير ذلك من الأمراض النفسية أو العصبية ، لا يمكن الا أن يكون مرضا عائليا إذ هو ينشأ بالتزاوج والوراثة البيولوجية .

وهنا يجب أن نتفهم معنى « العود » فى الجريمة . فاننا لا نسم أحد المجرمين بالعود الا اذا وقع هو نفسه فى الجريمة مرتين . ولكن مادمنا قد جعلنا العائلة أساسا للانهيار الاجتماعى فان العود يصح عندما يقع من شخصين مختلفين ولكنهما من عائلة واحدة ، فاذا وقع من خمسة أفراد فى جرائم مختلفة وكان كلهم عضوا بعائلة واحدة ، فان كل فرد لا يعد عائدا فى نظرنا الحاضر لمعنى العود ولكن العائلة بالنظر الجديد لهذا المعنى توسم بالعود خمس مرات . وهذا النظر حسن ومعتدل ، لأننا عند ما نريد علاج هذه الجرائم لا يصح أن نعالجها فى الفرد ولكن فى العائلة ، وعندئذ يبلج لنا معنى جديد للوقاية الاجتماعية وهو أن نؤسس الطمأنينة والصحة الاجتماعية فى البيئة العائلية . ولا نعالج الفرد بل نعالج العائلة . ففى الوقت الحاضر عندما نرى صبيا عاصيا أو مجرما نرسله إلى الاصلاحية ، ولكن البيئة التى جعلت هذا الصبى يحرف لا تزال قائمة فى عائلته تربى غيره مثل تربيته وتقوده الى الطرق المعوجة . فبالنظر الجديد يجب أن نعمد الى هذه العائلة ونصلح ما فيها من طرق معوجة .

لقد ذكرنا الأمراض السبعة التى يمكن أن يقاس بها الانهيار الاجتماعى كما يفهمه المجتمع الأمريكى . وهو بالطبع يختلف عن مجتمعنا . ولكنا ذكرناها طريقة للبحث يمكن الاستنارة بها . فان هذه الجرائم تحصى جميعها ثم تستخرج منها الأرقام المئوية إلى عدد العائلات فى المدينة أو القطر فتقاس بذلك درجة التماسك أو الانهيار الاجتماعى . وعندئذ يعرف المجتمع الحسن بقلة جرائمه السبع هذه ، كما يعرف المجتمع السيئ بكثرتها ، وتقاس سائر المجتمعات بين هذا أو ذاك بدرجات متفاوتة . وبالوقوف على هذه الأرقام تتضح لنا طرق العلاج من إيجاد أندية للصبيان الى توفير المدارس ، الى بناء المنازل ، بل لعل العلاج يرشدنا إلى طرق جديدة لمكافحة التعطل أو الى التربية الحرفية أو إلى المعالجة النفسية .